Cordova Journal
ISSN-catak: 2302-3155
Vol. 8, No. 2, 2018

Jurnal kajian Bahasa dan Budaya terbit 2 kali setahun
oleh UPT. Pengembangan Bahasa UIN Mataram.
https://journal.uinmataram.ac.id/index.php/cordova/index

Al-Bayan 'Inda al-Jahiz wa Murtakazatuhu al-Tadawuliyah

Ouadeh Ahmed
University saida, Algeria
Ouadah.a31@gmail.com

ملخص :

لاشك أن التعاطي العلمي الموضوعي القائم على نظرات ممنهجة ودقيقة إلى أسوار الفكر البلاغي العربي وتنظيرات أعلامه؛ يفضي بالباحث الحصيف إلى اكتشاف العديد من النظريات الجوهرية التي ارتقت لتلامس بعض الحقائق والتصورات المعرفية التي يتبناها الدرس التّداولي المعاصر، وأفضل شاهد يمكن الاعتداد به في هذا الصدد تلك التنظيرات التي نبعت من فكر **الجاحظ**، وبالضبط في تلك المساحة المفاهيمية المتعلقة بالبيان ببعديه الإفهامي والإقناعي، حيث تظهر ها هنا بعض الومضات المنهجية التي من شأنها مدّ جسور تلاقي حقيقية تربط بين وشائج الفكر البلاغي العربي والدّرس التّداولي المعاصر، وأهم نظرياته وطروحاته التي يتقفاها وهو يتعامل مع الظاهرة اللغوية في بعدها الاستعمالي، كالكفاءة التداولية compétence pragmatique والافتراض السّابق **présupposition** وسياق القول **contexte** والحجاج **l'argumentation** وغير ذلك من المقولات والميكانيزمات التي يعتدّ بها.

الكلمات المفتاحية: كالكفاءة التداولية (competence pragmatique) والافتراض السابق (presupposition) وسياق القول (contexte) والحجاج (I' argumentation)

:

Copyright © 2018 by Cordova Journal

Cordova Journal
ISSN-catak: 2302-3155
Vol. 8, No. 2, 2018

Jurnal kajian Bahasa dan Budaya terbit 2 kali setahun
oleh UPT. Pengembangan Bahasa UIN Mataram.
https://journal.uinmataram.ac.id/index.php/cordova/index

توطئة :

يعتبر الجاحظ من الشخصيات المهمة التي أسست للفكر البلاغي العربي لأنّه "تمكّن بمنهجية عقلانية ناضجة من تمثل آراء السّابقين من علماء الشعر وتجريدها وصهرها ضمن نظريّة متماسكة هي نظريّة المقامات التّي تُمثِّلُ مسلكاً من أبرز المسالك إلى اكتشاف خصائص نظريته الأدبية والجماليّة بشكل عام"(١)، ويعتبر القرآن الكريم المصدر الأصيل الذي اغترف منه الجاحظ هذه الفكرة، فقد أورد الجاحظ في عدّة مواضع من مؤلفه البيان والتبيين عدّة إشارات تشيد بكلام الله، باعتباره أبلغ و أفصح كلام يحتل الصّدارة الحقيقية من حيث كل الأبعاد والأوجه، يقول في هذا الصّدد: ''وأبين الكلام كلام الله هو الذي مدح التبيين وأهل التفصيل''(٢)، فالقرآن يبيّن المعنى ويفصل المجمل "وأنزل عليه قرآن عربيّا، كما قال الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)(٣)﴾(٤).

ومن بين الأمارات الدّالة على تأثر الجاحظ بالقرآن الكريم وجعله بمثابة المصدر الحقيقي لولادة فكره؛ وخاصّة في "نظريّة المقامات"؛ تلك السّطور المعرفية التّي نلفيها متناثرة في طيّات مؤلفه البيان والتبيين. يقول مثلا وهو في معرض حديثه عن الحيثيات التي ينبغي توافرها لتحقيق الفصاحة في الكلام "فقد يستحقّ الناس ألفاظ ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب، أو في موضوع الفقر والعجز الظاهر، والنّاس لا يذكرون الشغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسّلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة أكثر والخاصّة لا تفرق بين ذكر المطر وذكر الغيث، والقرآن إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل إلاّ الأرضين، فلا يجمع الأرض أرضين ولا السّمع أسماعًا،

(١)–أحمد الوردني، قضية اللفظ والمعنى ونظريّة الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن السابع هـ/١٣هـ، دار الغرب الإسلامي ، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى، بيروت ص ٧٦٥.

(٢)–الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة، القاهرة ، الطبعة الخامسة ،١٩٨٥، ج١، ص ٢٧٣.

(٣)–سورة الشعراء، الآية ١٩٥.

(٤)–الجاحظ: الرسائل الأدبية، رسالة تفضيل النطق على الصّمت، دار مكتبة الهلال، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥، ص ٣٠٥.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

والجاري على أفواه العامّة غير ذلك، لا ينتقدون من الألفاظماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال"[١]، ووفق هذا المقتضى التصوري؛ فإنّ الأمر الّذي يذهب بحلاوة اللّفظ وفصاحته هو استعمال الألفاظ في غير موضعها الدّقيق.

كما يقول في موضع آخر في كتابه الحيوان "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام. فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والاحتداء على مثال القدماء والأخذ بما عليه الجماعة"[٢] وبالتالي فإنّ الإبانة مرتبطة ارتباطاً شديداً بمقتضيات المقام، بحكم أنّ تغيّر المخاطبين يؤدي مباشرة إلى تغيير شكل الخطاب وخصوصياته. و لما كان البيان الذي ينشده الجاحظ و المقولات التي تشدكيانه يتمحور حول الوظيفة الإفهامية و الوظيفة الإقناعية ، ارتأينا في هذا العمل أن نشد الرحال المعرفي إلى هاتين الوظيفتين لاستكناه أطرهما و اسستباحة عمقهما للوقوف على أهم الومضات التداولية القابعة في صلبهما .

١ – الوظيفة الإفهامية و مبادئها التداولية :

لقد ربط الجاحظ مفهوم البيان بالفهم والإفهام "باعتبار أنّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسّامع إليها إنما هي الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[٣]. ولذلك دأب في عدّة مواضع من كتابة "البيان والتبيين" على إعداد توصيات تدعو إلى تهذيب الألسنة بالتدريب حتّى يستقيم المنطق وتسلسل العبارة كما أوصى بتجنّب التكلّف وكلّ أمر يطمس معالم الفصاحة وجوهرها، وهو ما سيؤدي إلى الفهم الصحيح لما قيل وهو ما سيحقق في نهاية المطاف نجاح العملية التواصلية.

إنّ كل إطار تواصليمعيّن حسب الجاحظ خليقٌ بأن يرمي بتأثيراته على مسألة اختيار إستراتيجية تداوليّة معيّنة تتطابق وتتناسب معه عند المتكلم البليغ ،لذلك يقول "وأرى أن أتلفظ بألفاظ المتكلمين مادمت خائض في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام، فإنّ ذلك أفهم لهم عنّي وأخف لمؤونتهم علي ولكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٦٠.
(٢) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السّلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٩، ج١، ص٩٤.
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٧١.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلاّ بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلكم الصناعة، وقبيح بالمتكلِّم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطة أهله وعبده وأمّه أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا خبّر، وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ والعوام وهو في صناعة الكلام داخل. فلكلّ مقام مقال ولكلّ صناعة شكل"[١] وعليه بات لزاما على البليغ المتكلِّم اتباع إستراتيجيات تداولية انتقائية للكلمات والعبارات يتمّ من خلالها تحقيق نوع من التوافق مع الظروف الحضارية والثقافية والطبقية والموضوع المتحدث فيه، بالإضافة إلى اعتبارات المتلقي واهتماماته التّي لابدّ من استصحابها في عملية إنتاج الكلام البليغ.

وفي ظلّ هذا المقتضى التّصوري؛ يمكن القول أن مقولة "لكلّ مقال مقال"أو "لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام" أو "مطابقة مقتضى الحال" هي من جوامع الكلم التّي وقعوا عليها، والتّي تصدق على دراسة ومقاربة المعنى لا في العربية الفصحى فحسب بل على كل اللّغات[٢]، على أساس أن المتكلم البليغ مضطر إلى إحداث نوع من التوافق بينه وبين متلقيه ، كما أن هذا المتلقي يجد نفسه —كذلك. مجبرًا بالإلمام الشامل والإحاطة التّامة بكل الحيثيات والجزئيات المشكلة للمقام، سعيا منه للوصول إلى تحقيق تأويل حقيقي، مناسب لما قِيلَ. وعليه فإنّ عملية تحليل الوظائف اللغويّة وفق المستويات الصّرفية والصوتية والنحوية والمعجميّة ليست خليقة —وحدها– للوصول إلى المعنى المراد (القصديّة)، بل تُلزم على المحلّل/المتلقي الوقوف على كلّ صغيرة وكبيرة تمت بصلة وثيقة بالعنصر الاجتماعي المحيط بالعمليّة التواصلية برمتها والمتمثل في المقام[٣]، فالتعامل مع الكلام من زاوية كونه عمل منعزلٌ عن سياقه الخاص، يعدّ نوعاً من العبث الذي من شأنه أن يحدث عوائق وملابسات سلبيّة تأخذ بالتأويل السّليم إلى دائرة اللّبس والغموض، وبالتّالي الإخفاق في التّواصل الفعّال والإيجابي.

---

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السّلام هارون، ج٣، ص: ص ٣٦٨/٣٦٩.

(٢)ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٧٢.

(٣) محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليّا في ضوء مفهوم الدلالة المركزيّة، دراسة حول المعنى وظلال المعنى، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٩٣، ص ١١٨.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

ووفق هذه العتبات التصوريّة، وانسجامًا مع ما ذكرناه في مسألة تعاطي الجاحظ مع الفصاحة والبيان؛ يمكن الجزم أن المقام يحتلّ مرتبة رصينة وموضعا مهمّا في الفكر البلاغي العربي، وهو ما يتماثل إلى حدّ بعيد مع تنظيرات الدّرس التداولي المعاصر، الذي يعتبر المقام معطى مهم لا يمكن تجاوزه في أيّ مقاربة لغويّة باحثة عن المقاصد والأغراض، حيث حظي سياق القول Le contexte بتنظيرات مستفيضة ألمت به من كل حدب وصوب من لدن الباحثين التّداوليين، الشيء الذي جعل منه يأخذ طابع التمفصل وتعدّد المستويات(١).

١-السّياق الظرفي Contexte circonstanciel: والمتمثل في الظروف الفيزيائية المباشرة للمشاركين في العملية التواصليّة مثل (المكان، الزمن، وطبيعة التواصل).

٢-سياق الموقف Le contexte situationnel: والمتمثل في الظروف الثقافية للخطابات.

٣-سياق التفاعل Le contexte internactional: ويتمثل في أشكال الخطابات ونظام الإشارات المصاحبة.

٤-السياق الإفتراضيLe contexte présuppositionnel: وهي مجموع القناعات والقيم المشتركة بين الباث والمتلقي.

بالإضافة إلى هذا؛ يعتبر المقام حسب كوست CosteوقاليسونGalisson من المعطيات المهمّة التي تفرض نفسها على المتكلّم؛ إذ يجد نفسه ملزمًا بالأخذ به في العمليّة الخاصّة بلملمة خصوصيات الإستراتيجيّة الواجب اتّباع إملاءاتها باعتباره "مجموعة شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معيّن، يستمدّ وجوده من شخصيّة المتكلّم ومستمعه أو مستمعيهْ؛ ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) الّذين يحصل فيهما"(٢)، وهو ما لمسناه بعمق في تنظيرات الجاحظ السالفة

(1) Voire : Marie Amine paneau – George Elia Sarfati (2003), les grandes théories de la linguistique, de la grammaire comparée à la pragmatique, édition Armand Colin, Paris, 2008/2009. P 24

(٢) الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداوليّة، ترجمة محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، (د.ت)، ص ٤١.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

إنّ تأكيد الجاحظ على ضرورة مراعاة حركيّة المقامات في الاستعمال؛ لهو أمر نلفيه يفرض نفسه في مقولات الدّرس التداولي المعاصر وخاصة في مفهوم ما يسمّى بمصطلح الكفاءة التداولية compétence pragmatique، والّذي يتمثل حسب التداوليين في "المقدرة على استخدام اللّغة في سياقاتها الفعليّة التّي تتجلى فيها"(١)، ويمكن إجمال اتجاه هذا المفهوم التداولي في مجالين:

١-القدرة على تحديد وتفسير ما تعنيه الجمل (العمليّة التأويلية).

٢-القدرة على استعمال اللّغة بطريقة مرنة بالتكيّف السّليم والفعّال مع ملابسات التخاطب التّي تتسم بالدِّيناميكيّة.

ولعلّ مقولة "لكلّ مقام مقال" تتماثل بشكل قوي مع المجال الثاني، لدرجة أنه يمكن القول أن هناك تطابق بين هذه المقولة التّي احتلت منزلة الصّدارة في البحث البلاغي العربي وهذا المجال المعنى بتتبع حركية المقامات قصد خلق توافق بناء يفضي إلى فهم سليم لما قيل، يقول محمد محمد يونس علي في هذا الصّدد: "... وربّما دخل في هذا النّوع [الاتجاه الثاني] ما عرف في تراثنا بكيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال"(٢)، وبذا إنّ مصطلح الكفاءة اللغويّة Compétence linguistique عند شومسكي، والذي يرى فيها أنّه تلك القدرة التّي يمتلكها الفرد المتحدث والخاصّة بقواعد لغته ووحداتها المعجميّة؛ تبقى عاجزة لإقامة تواصل حقيقي(٣). إذ يجب الأخذ بعنصر المقام الاجتماعي Contextes sociaux واعتباره من المرتكزات المهمة المتعلقة بقضية تشكيل الخطابات وإستراتيجيات بنائها الدّاخلي.

كما يظهر أفق تداولي واضح في تخريجات الجاحظ، ويتمثل كُنهه في تسهيل العملية التأويليّة من قبل المُخاطب، وهو بصدد محاولة البحث عن المقاصد الّتي تتضمنها أي صيغة لغويّة، بحكم أن المنطوقات اللغويّة لا

(١) محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليّا، في ضوء مفهوم الدلالة المركزية ، دراسة حول معنى و ظلال المعنى ، منشورات جامعة الفاتح ، ليبيا ، ص ١٢٧.

(٢) مرجع نفسه، ص ١٢٨.

(3) Voire : PatirickCharaudeau, Dominique Maingueneau, dictionnaire d'analyse de discours, édition du seuil, Paris, 2002, P113.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

تفهم وهي منعزلةٌ عمّا سواها، بل تبقى في حاجّة ماسّة إلى الحيثيات والظروف المحيطة بها، والتّي قد تكون شخصيّة أو ثقافية أو تاريخية[١].

ومن هذا المنطلق؛ فإنّ للمرسل إليه دور كبير لا يستهان به في تحديد الإستراتيجية الخطابية وبنائها "فبناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حدّ بعيد –بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال"[٢] بمعنى أنّ الإفتراض السّابق Présupposition هو مفهوم نلفيه يفرض نفسه في التعليمات والشروط الأساسيّة التّي نجدها بمثابة ضوابط ودعائم أساسيّة في مسألة بناء الخطاب البلاغي العربي.

ولعلّ جهود الجاحظ المتعلقة بمعالجة أنواع الدّلالات على المعاني وتقسيماتها خليقة بمدّ جسور تماثلية بين الفكر البلاغي العربي والتنظيرات التداوليّة خاصّة في تلك المنطقة المعنيّة بتنظيم التواصل الفعّال بشكل عام وضمان سيرورته، إذ مثّل هذا الأخير (الجاحظ) معلمًا بارزًا في استيعاب طبيعة التّواصل كضرورة اجتماعية[٣]، حيث توصّل بفضل فكره الثاقب ونظراته الفاحصة: أنّ اللغة باعتبارها علامة لسانية أو أداة بيان؛ ليست هي آلة البيان الوحيدة، بل تعتبر الإشارة والعقد والنصبة من الآلات البيانية بالإضافة إلى الحظ الذي يعدّ مشكلاً من أشكال اللّفظ، حيث يقول "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثم الخط، ثم الحال التّي تسمّى نصبة"[٤].

لقد تضمّن هذا التقسيم الخاص بمسألة أصناف الدلالات على المعاني، ظلالاً تداوليّة بالدرجة الأولى، إذ نلفي الدرس التداولي ينحو بآلياته وميكانزماته في التّحليل التداولي نحو تلك المساحة المهتمة بالاعتبارات غير اللغوية

(١) ينظر: رمضان النجار، اللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية (مصر)، ٢٠٠٤، ص٢٣٣.
(٢) عبد الهادي عن ظافر الشهيري، إستراتيجيات الخطاب، مقاومة لغوية تداولية ، دار الكتب الوطنية ، ط١، ليبيا ، ٢٠٠٤ ، ص ٤٧.
(٣) ينظر: صالح خليل أبو إصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال، دار آرام عمان، الطبعة (١)، ١٩٩٥، ص ٧٢.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١/ص٧٦.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

في العملية التخاطبيّة فضلاً عن الاعتبارات اللغويّة. إذ "ينتبه إلى مختلف الوسائط التعبيريّة، أو فلنقل ما يكون من اللّغة، وغير اللّغة في أداء دور الإفهام، والتعبير عن المعنى المراد إيصاله"(١).

٢- الوظيفة الإقناعية عند الجاحظ و أفقها التداولي:

فضلاً عن هذه الجهود استطرد الجاحظ في مؤلفه البيان والتبيين إلى الحديث عن "الوظيفة الإقناعيّة للخطاب أو ما يسمى بـ"بلاغة الخطاب الإقناعي" من خلال سرده مجموعة من النصوص نلفيها مطروحة في أسوار الصفحات الأولى من كتابه وفي ما يلي بعضٌ منها:

١-"سأل الله، عز وجل، موسى بن عمران عليه السّلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته"(٢).

٢-"وليس حفظك الله، مضرةُ سلاطة اللّسان عند المنازعة، وسقطت الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم ممّا يحدث عن العي من خلال الحجّة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة"(٣).

٣-"وقال موسى عليه السلام وأخي هارون هو أفصح منّي لسانا، فأرسله معي ردءا يصدقني(الآية٣٤ ،سورة القصص) وقال "ويضيق صدري ولا ينطلق لساني"(الآية ١٣،سورة الشّعراء).

"ورغبة منه (موسى) في غاية الإفصاح بالحجّة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعد المشقّة"(٤).

٤-"وذكر الله، عز وجل، لنبيه، عليه السلام، حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدَّهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللّدَدِ عند الخصومة"(٥).

---

(١) نواري سعود أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي: المبادئ والإجراء، بيت الحكمة ، ط١ جزائر ، ٢٠٠٩، ص ٣٩.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، دار الوفاء للطباعة و النشر الاسكندرية ، مصر ، ٢٠٠٤، ص ٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٢.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٧.
(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٨.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

٥-"ثمّ ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم"(١).

٦-"كان أبو شمر إذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلّمة إبراهيم بن سيّار النظام، عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجّة والزيادة في المسألة حتى حرك يديه وحلّ حبُوته"(٢).

٧-"ومدح (الله) القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسمّاه فرقانا، كما سماه قرآنا"(٣).

٨-"ولما علم واصل بن عطاء أنّه الثغ فاحش اللّثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنّه، إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنّه لابدّ من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة... وأن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى بهالأعناق، وتزين به المعاني، وعلم واصل أنّه ليس معه ما ينوب عن البيان التّام والتّسديد، مع لباس التقوى وطابع النبوة... رام أبو حذيفة إسقاط الراء"(٤).

٩-"قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصوّرة في أذهانهم... مستورة خفية... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليله... وإنما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التّي تقرّبها من الفهم، وتجليها للعقول، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا، وهي الّتي تلخص الملتبس، وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا والمجهول معروفا، والوحشي مألوفًا، والغفل موسومًا، والموسوم معلومًا"(٥).

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٩١.
(٣)المصدر نفسه، ج١، ص ٨.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥/١٤.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

إذا أردنا التفحص والتدبر في هذه النصوص التّي وردت في البيان والتبيين؛ عن طريق معاينة فكرية منهجيّة، لوجدنا أنّ هذه الأخيرة تتجه اتجاها إقناعيا واضحًا ويأخذ هذا الاتجاه مساحة ممتدة "بين قطبي الاستمالة والاضطرار، مع تداخل هذين المستويين في الوسائل المؤدية إليها"[١]، وبذا تظهر إشارة جليّة مؤدّاها أنّ البيان عند الجاحظ لا يقتصر على الوظيفة الإفهامية فحسب، بل يتعدى البيان خط الفهم والإفهام إلى مستوى حقيقي آخر ذو بعدٍ تداولي محض وهو المستوى الحجاجي.

لقد تمكّن الباحث محمّد العمري من إثبات هذا المقتضى التصوري من خلال جدول تحليلي وضعه على الشكل التالي[٢]:

المؤهلات والعوائق		صفات وموضوعه		الغرض
المؤهلات	العوائق	الصفات	الموضوع	التأثير
المنطق	العي	الإبلاغ	الدعوة إلى مقالة	استمالة القلوب
الأحلام	الحصر	الإبانة	الدفاع نحلة	ثني الأعناق
العقول	ضيق الصدر	الإفصاح	إبلاغ الرسالة	التصديق
الدهاء	توقف اللسان	الفصاحة	الحجّة	ميل الأعناق
المكر	اللّثغ	الوضوح	الحاجة	فهم العقول
الألسنة		الصحة	المنازعة	إسراع النفوس
النكران		البيان		الاستمالة
التمييز		حسن التفصيل		الاضطرار
السياسة		الإيضاح		التحريك

(١) محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب ١٩٩٩، ص ١٩٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٨.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

لباس التقوى طابع النبوة		وضوح الدلالة الإفهام الفهم الإحتجاج الأدلة		حل الحبوة

المُلاحظ من خلال هذا الجدول أنّ بعض المصطلحات التّي استخدمها الجاحظ في النصوص السّابقة كالدعاء والمكر والنكران والاحتجاج والاضطرار بالحجة...تدخل في خانة "أجلى صفات الاضطرار"، هذا من جهة، وفي الاتجاه المقابل فإنّ كلٌّ من السّياسة والمنطق والأحلام والإبانة وميل الأعناق...تنتمي إلى مجال "أجلى صفات الاستمالة وبالنظر إلى الآثار التي توخاها الجاحظ (من خلال النصوص)؛ يمكن القول: أنّ كل هذه الوسائل تتجه نحو الإقناع سواءً من جانب الاستمالة أم من جانب الاضطرار.

والحجاج من خلال هذا المنظور الجاحظي وجه من أوجه القوة الضمنية للخطاب الّتي تعتمد على توظيف مختلف الأدوات والإستراتيجيات قصد بلوغ الهدف المنشود والمتمثل في إقناع المتلقي، بل قد تدفعه إلى تغيير السلوك وإنجاز الفعل،و هوما يؤدّي بنا رأسا إلى استحضار تنظيرات كلّ من **تيتيكاه و بيرلمان** وهم في مجال حديثهما عن الغاية المتوخاة من الحجاج ، حيث أكّدا أنّ الغاية المركزية منه هي "أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه"[١].

كما يمكننا أن نستشف من خلال هذا الطرح الّذي اختصّ به الجاحظ قدرته الكبيرة على تشخيص وتبيان كيفيّة اشتغال الأبنية الحجاجيّة في الخطاب وعلاقة ذلك كلّه بالإقناع ، وهو نفسه ما ركّز عليه كلّ من تيتيكاهوبيرلمان

(١) عبد الله صولة،الحجاج أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال "مصنّف في الحجاج –الخطابة الجديدة" لبيرلمانوتيتيكاه ، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم" ، سلسلة آداب ،جامعة الآداب والفنون و العلوم الإنسانية ، كلية الآداب ،منوبة ، مجلّد ٣٩ ، المطبعة الرّسمية ، الجمهوريّة التّونسية (د.ت) ،ص ٢٩٩.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

،فوفق منظورهما أنّ قوّة الحجاج تتاتّى من مسارين اثنين :أوّلهما نوع الحجج المقدّمة في العبارات والنّصوص والخطابات ، أمّا المسار الثّاني فهو متعلّق بطريقة تموضعها وانتظامها في الخطاب بطريقة تجعل هذا الأخير مقتدرا على إقناع المتلقي وحمله على إنجاز العمل المطلوب أو الكف عنه ، ويتمّ ذلك بتمرير مقاصد الخطاب عبر تقنية منتظمة وانتقالها من الأطر القولية والسّمعية إلى الفعل والحدث والتّغيير[١].

بالإضافة إلى هذا التقاطع المعرفي يمكن استنباط تقاطع تنظيريّ آخر بين الطّرح الجاحظي السّابق و نظريّة أفعال الكلام الّتي نظّر لها **أوستين** ،حيث قسّم هذا الفيلسوف الفعل الكلامي إلى ثلاثة أجزاء وهي : **فعل التلفظ**: ويعني به تلك الألفاظ الذي تنتمي غلى جمل سليمة نحويّا وذات دلالة معيّنة ،و **فعل قوّة التّلفظ**: وهو ما يؤدّيه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي ، **وفعل أثر التلفظ**:وهو التّسبّب في نشوء آثار في العواطف والأفكار كالإقناع و الإرشاد...[٢] وفي هذا المستوى الأخير دلالة صريحة وواضحة على أنّ الفعل الكلامي برمّته يعمل على الإقناع والتأثير ،بمعنى آخر : إن وظيفة اللغة حسب **جون أوستين**هي التّأثير على الواقع ، و السّماح لمن ينتج الملفوظات إنجاز هذا الفعل..[٣]

في ظلّ ما سبق يمكن القول بأنّ البعد الإنجازي في الأفعال الكلامية عند أوستين وما ينجر عنه من آثار على المتلقين يتماهى بعنف مع ما قدّمه الجاحظ وهو في مساق التنظير للبيان وقيمه الحجاجيّة الّتي ترخي بظلالها على الواقع من خلال التّأثير على المتلقين وقلب قناعاتهم، أو زيادة الإذعان و التّسليم...وهو ما عبّر عنه بعدّة عبارات ،كاستمالة القلوب و تني الأعناق ، والإستمالة...إلخ ،ولكن الأمر الجدير بالذكر في هذا الصّدد أنّ الأفعال

(١)ينظر: محمد سالم ولد محمد الأمين ،مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة،عالم الفكر ،الكويت ،م٢٨ ،العدد٣ ،يناير مارس ،٢٠٠٠ ،ص ٦٣.

(٢) ينظر:محمود صحراوي ،التداوليّة عند العلماء العرب ،دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي ، دار الطّليعة للنشر ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٥ ،ص٤٢.وينظر :محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر ،دار المعرفة الجامعيّة ، مصر ، ٢٠٠٢ ص٤٥.

(2)Jaque moeshler-antonieauchlin .introduction A l’inguistiquecontemporaine.deuxiemeédition.armande colin/her paris 1997-2000.p 135

Copyright © 2018 by Cordova Journal

المطلوب إنجازها لا بدّ أن يتمّ التّعبير عنها بأساليب حجاجية تراعي المقام بكلّ حيثياته و تفاصيله ، أي أن يكون المتكلّم أو الكاتب "عالما بأحوال مخاطبيه و مقاماتهم الفعلية والمتوقعة"(١)

إنّها بحق؛ نظرة فكريّة تعكس بوضوح انصهار بين المفهوم الأول (العام) الّذي يدخل ضمن إطار الرؤية العامّة للعصر، والمفهوم الثاني (الخاص) المنتمي إلى إطار النزاعات المذهبية، بحكم أنه يمثّل علمًا بارزًا من أعلام المعتزلة ساهم إلى حدّ كبير من تقيين الخطاب الإقناعي ذو البعد البلاغي. إلاّ أن الجاحظ (حسب محمد العمري) لم يقدم لنا تفريقا واضحًا جليّا بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الإقناعي التداولي الخاص بطريقة تجعل المستوى الأخير (ذو الطابع التّداولي) يشكّل مستوى من مستويات الأوّل (ذو طابع اللغوي أو السّيميائي)(٢).

ومن الومضات الفكريّة الأخرى الدّالة على تركيز الجاحظ على الوظيفة الإقناعية للخطاب؛ حديثه عن الإشارة وخصوصًا عند تزامنها مع ممارسة اجتماعيّة أو فنية، يقول "من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا يعيد مدى الصّوت، ومن تمام آلة الزّمر أن تكون الزامر سوداء. ومن تمام آلة المغني أن يكون فارِهِ البرذون، برّاقِ الثياب، عظيم الكِبر، سيء الخلق، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميًّا ويكون اسمه أذِينَ أو شلومامازريار، أو أزدافقاذار، أو مشيا، ويكون أرقط الثياب، مختوم العنق. ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا، ويكون الدّاعي إلى الله صوفيا، ومن تمام آلة السُّؤدد أن يكون السّيد ثقيل السّمع، عظيم الرّأس"(٣).

ووفق هذا المقتضى من التّصور فإن هذه المظاهر الإشارية والسّلوكية المصاحبة للّغة تصبغ العبارات المتلفظ بها بصبغات ذات طاقات إيحائية تداوليّة بالدّرجة الأولى، وبالتالي تُدعَّمُ الأفعال الكلامية وتُثرَى بالأبعاد التداولية الحجاجيّة، لتصبح أكثر وقعًا وتأثيرًا على المتلقين من خلال قلب قناعاتهم وأفكارهم القبليّة في أطر الممارسات الاجتماعية والفنيّة بكلّ صورها وأشكالها. وبذا يمكن الخلوص إلى فكرة جوهريّة في هذا المضمار المتعلّق برصد البعد الإقناعي من خلال الإشارة، مؤداها: إن تعميق القدرة التعبيريّة المؤثّرة مرهون بالاعتداد على مظاهر سلوكيّة تصاحب

(١) محمد سالم ولد محمد الأمين ،مفهوم الحجاج عند بير لمان وتطوره في البلاغة المعاصرة ،ص:٦٤.

(٢) ينظر: محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص ١٩٩.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ٩٥.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

اللّفظ وتتقوى به. وفي هذا إشارة جليّة واضحة إلى تفطن الجاحظ إلى الأمور والإستراتيجيات التّي من شأنها خلق تأثيرات على المتلقين وبالتالي ظهور تفاوت حقيقي بين خطاب وآخر. فعلى الرغم من تفوق خطاب على آخر من حيث البناء والتشكيل الدّاخلي له، إلاّ أنّه لا يمكن الجزم أن هذا الأخير ناجح في بعده التأثيري بحكم أنّ العديد من الخطابات لا تشتمل على ذخيرة فنيّة كبيرة من حيث بناءها وهيكلتها الداخليّة إلاّ أنّها ناجحة في بعدها التداولي لإعتمادها على كلّ ما من شأنه التأثير على المتلقين كالمظاهر المصاحبة للخطاب والصّوت المناسب و تعبيرات الوجه..

الخاتمة :

خلص البحث إلى مجموعة من الحقائق المعرفية من بينها :

١_يشكّل معطى المقام عند الجاحظ لبّ نظريته البيانيّة وقطب رحاها ،ويظهر ذلك جليّا في توصياته المتعلّقة بمسألة بناء وانتاج الكلام البليغ والفصيح وعلاقته بمراعات المقام وحيثيّاته بطريقة راقية فجّرت منابع التماهي والتّماثل المعرفي بين طروحاته المؤسّسة للفكر البلاغي العربي والدّرس التداولي المعاصر الّذي يعتبر المقام بمثابة الركن الرّكين الّذي لاينبغي تجاوزه في بناء **الإستراتيجيّة الخطابيّة**.

٢_يعتبر الجاحظ انّ البيان الحقيقي ، هو المؤدّي في نهاية المطاف إلى الفهم والإفهام ، لذلك دأب في تنظيراته على زرع الشّروط وإعداد التّوصيات المفضية إلى الخطاب النّاجح في بعده الإستعمالي التّداولي وهو ما يتماثل إلى حدّ بعيد مع خصوصيّات مفهوم **الكفاءة التداولية**الّتي نظّرت لها المقاربات والبحوث المستفيضة الّتي تدور في فلك التّداولية.

٣_نلمس من خلال الغوص في مضامين التنظيرات الجاحظيّة المتعلّقة بالبيان ،أنّ هناك حضور قويّ لمفهوم**الإفتراض السّابق**وبالظبط في قضيّة تعاطيه مع بناء الإستراتيجيّة الخطابيّة و علاقتها الوثيقة بالمتلقي وأوضاعه الحضاريّة والثقافيّة والإجتماعيّة.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

٤_استطاع الجاحظ أن يتوصّل بفضل رجاحة عقله وتبصره النافد إلى مكونات الكلام البليغ أن يعاين طريقة اشتغال الأبنية الحجاجيّة في الخطاب وعلاقة ذلك بالإقناع ، وهو ما يماثل إلى حدّ بعيد خصوصيّات النظريّة الحجاجيّة لكلّ من **بيرلمانوتيتيكاه**.

٥_يؤدّي بنا الوقوف الحصيف لتنظيرات الجاحظ المتعلقة بالإقناع إلى استحضار الوظيفة الجوهريّة الّتي يقوم عليها **الفعل الكلامي** عند صاحبه **أوستين** وهي الإقناع والتأثير...

٦_لا يمكن الإحتكام إلى معيار الصدق والكذب في قضيّة معاينة مصداقيّة النتائج في حجاج الجاحظ كما هو الحال في البرهان، بل إنّ هذه المصداقيّة تقاس بمدى **تماسك الخطاب وانسجامه** وتظافر حججه بطريقة منتظمة تفضي إلى الإقناع.

٧_ألزم الجاحظ منتج الخطاب الحجاجي بتقدير افق انتظار المتلقي ، واعتبر أنّ ايّ شطط في تقدير هذا الأفق سيؤدّي إلى تشردم البناء الحجاجي ممّا يؤدّي في نهاية المطاف إلى غياب التاثير والإقناع.

المصادر و المراجع :

القرآن الكريم

١. الجاحظ أبو عثمان ابن بحر : البيان و التبيين مكتبة الخانجي تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥.
٢. الجاحظ أبو عثمان ابن بحر : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٦٩.
٣. الجاحظ أبو عثمان ابن بحر : الوسائل الأدبية ، رسالة تفضيل النطق على الصمت ، دار مكتبة الهلال ، ط٣ ، ١٩٩٥
٤. شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، دار المعارف ، الطبعة ٦ ، القاهرة، (د.ت).
٥. أحمد الوردني ، قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب من الأصولإلى القرن السابع هـ/١٣ م ، دار الغرب الإسلامي ، المجلد الثاني ، الطبعة ١ ، بيروت ، ٢٠٠٤.
٦. تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، عالم الكتب ، ط٤ ، القاهرة ، ٢٠٠٣.
٧. محمد محمد يونس علي ، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية ، دراسة حول المعنى و ظلال المعنى ، منشورات جامعة الفاتح ، ليبيا ، ١٩٩٣.

Copyright © 2018 by Cordova Journal

٨. رمضان النجار ، اللغة و انظمتها بين القدماء و المحدثين ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، الإسكندرية (مصر) ، ٢٠٠٤.

٩. عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتب الوطنية ، الطبعة الأولى ، ليبيا ، ٢٠٠٤.

١٠. صالح خليل أبواصبع ، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال ، دار أرام عمان ، الطبعة ١ ، ١٩٩٥.

١١. محمد العموي ، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ، إفريقيا الشرق ، الغرب ، ١٩٩٩.

١٢. الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ترجمة محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجزوائرية (د.ت).

١٣. عبد الله صولة،الحجاج أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال "مصنّف في الحجاج –الخطابة الجديدة" لبيرلمانوتيتيكاه ، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم" ، سلسلة آداب ،جامعة الآداب والفنون و العلوم الإنسانية ، كلية الآداب ،منوبة ، مجلّد ٣٩ ، المطبعة الرّسمية ، الجمهوريّة التّونسية (د.ت) .

١٤. محمد سالم ولد محمد الأمين ،مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة،عالم الفكر ،الكويت ،م٢٨ ،العدد٣ ،يناير مارس ،٢٠٠٠.

١٥. محمود صحراوي ،التداوليّة عند العلماء العرب ،دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي ، دار الطّليعة للنشر ،الطبعة الأولى٢٠٠٥.

١٦. محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر ،دار المعرفة الجامعيّة ، مصر ، ٢٠٠٠.

17.Jaquemoeshler-antonieauchlin .introduction A l’inguistiquecontemporaine.deuxiemeédition.armande colin/her paris 1997-2000.

18.Marie Anne Paveau - George EliaSafati(2003), les grands théorie de la l’linguistique ,de la grammaire comparée a la pragramatique , édition Armand colin , paris

19.Patrick, charaudeau, Dominique maingueneau(2002), dictionnaire d’analyse de discours, édition du seuil, paris .

Copyright © 2018 by Cordova Journal